الفن والفن الثوري

تعريف وتجارب لمناسبة الذكرى الحادية عشرة لتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

بقلم : الرفيق قاسم صوّاف

للفن ثلاث خصائص كما تعبر عنه النظرة العلمية ..

اولا - ان يكون انعكاسا للواقع ، ولكنه ليس انعكاسا فوتوغرافيا ،

ثانيا - ان يعبر عن ايديولوجية معينة ،

ثالثا - ان يكون مستوفيا للشروط الموضوعية لقيم الجمال ،

وبتوجب هذه الخصائص يمكننا محاكمة اي نتاج فني فيما اذا كان فنا معبرا عن الطبقة العاملة ونظرتها العلمية ، او معبرا عن الطبقة البورجوازية، لذلك نرى جملة من الفنون ، سواء المعبرة عن الابداع الفردي او الجماعي ، انما تعكس موقفا اجتماعيا من الواقع ، ولقد ظهرت منذ وجود الانسان حتى الان وسائل تعبيرية مختلفة تطورت مع التطور الاجتماعي منذ المجتمع البدائي الاول وحتى عصر الاشتراكية العلمية ، فتلاشت مدارس واتجاهات وظهرت اخرى ، وكل من هذه الفنون عبرت بشكل او بآخر عن ايديولوجية معينة وتركت تأثيرها على الواقع الاجتماعي ،

فالواقعية في السينما التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية كانت نتيجة اوضاع فكرية واقتصادية ، فكرية ، بسبب الهزة الانسانية على اثر الدمار الذي حل بالبشرية ، فتوجهت الكاميرا لتكشف الواقع امام عين المشاهد في محاولة لوضعه امام نفسه رغبة في المساهمة بتغيير هذا الواقع ، واقتصادية فذلك بسبب الازمة المالية التي وقعت فيها شركات الانتاج في ايطاليا وعدم تمكنها من تصوير الافلام داخل الاستوديوهات ودفع مبالغ كبيرة للديكورات التي تسببت في رفع كلفة الانتاج ،

لذلك ، فان ظهور هذا المذهب وتطوره بعد ذلك من الواقعية الى الواقعية الجديدة في الخمسينات ، قد دفع بالسينما نحو الواقع اكثر حتى ظهر الفيلم السياسي على اثر احتدام الصراع بشكل ملموس اكثر في العالم نتيجة الهيمنة الامبريالية ، وانتفاضة الشعوب بوجه التسلط والنهب والوثوب من اجل الحرية والاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي ،

وما حصل في السينما حصل ايضا على بقية رسائل التعبير الاخرى ، الرسم والنحت والموسيقى والمسرح ، ففي مجال الرسم مثلا نلاحظ ظهور الملصق الجداري بعد ان كانت اللوحة حكرا على الطبقات الارستقراطية ، تحتفظ فيها في الصالونات المترفة كشكل من اشكال الحذلقة البورجوازية ،

تعريف الفن

نسمع ونقرأ باستمرار كلمة (الفن الثوري) ، هل ان هذا التعبير دقيق ؟ وما معنى كلمة (فن ثوري) ؟ ولماذا برز في السبعينات ؟ وما هي انعكاساته في مسار حياتنا العربية بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص ؟

قبل ان نبحث في هذه التساؤلات لنقرأ (الفن) في الانسكلوبيديا الاشتراكية ،

« لعل المعنى الاشتقاقي الاول لكلمة الفن في اغلب لغات العالم هو العمل الذي يتميز بالصنعة والمهارة ، ولكن الفن بمعناه الخاص يرتفع فوق هذا المعنى العملي الخالص ،

فالفن لغة بشرية ، تنقل الخبرات النفسية والاجتماعية والفكرية، بطريقة وجدانية ، تتميز بالخلق والجمال ، والفن ليس تمثيلا لوقائع الحياة، ولا تقليدا للطبيعة ، رغم انه ينبع من حياة الانسان ومن تجربته المباشرة وسط المجتمع والطبيعة ، انه خلق لعلاقات جديدة بين عناصر مستمدة من الحياة والمجتمع والطبيعة ، وهو بهذا الخلق لا يصور الحياة الانسانية تصويرا حرفيا مباشرا ، وانما يعبر عن قسماتها الجوهرية ، وخبراتها الاساسية ، وبهذا يفسرها ويسهم في تغييرها ،

ولهذا فالفن ليس مجرد لعب ومتعة كما يقال ، وليس مجرد خلق الاشياء وعلاقات جميلة ، حقا ان في الفن متعة ، ولا فن بغير جمال ، الا ان الفن فضلا عن هذا يحمل بالضرورة رؤى انسانية، وينقل مضمونات اجتماعيا ، ويعبر عن موقف محدد من الحياة ، وليس معنى هذا ان تتحقق هذه الرؤى وهذا المضمون وهذا الموقف بشكل مباشر جهير ،

على انه لا فن بغير دلالة اجتماعية ، ولهذا فمهما تنوعت الفنون تغلب، على بعضها الطابع الفردي في الابداع مثل الرسم او الموسيقى او الشعر ، او غلب على بعضها الاخر طابع الابداع الجماعي مثل الباليه والمسرح والسينما والتلفزيون ، فانها جميعا ظواهر اجتماعيه ،

ولهذا كذلك تختلف القيم الفنية باختلاف المراحل الاجتماعية ، بل باختلاف المواقف في المجتمع الواحد ،

وتاريخ الفنون هو جزء من تاريخ المجتمع البشري ، يختلف ويتنوع وبتطور باختلاف المجتمع البشري وتنوعه وتطوره ، والفنون لا تتطور من حيث الوسائل التكنيكية للتعبير فحسب ، بل تختلف كذلك من حيث المضمون الاجتماعي ، وما المدارس الفنية المختلفة من كلاسيكية ورومانتيكية ورمزية وسريالية وتجريدية وواقعية الا اتجاهات فنية مختلفة تعبر عن مواقف ودلالات اجتماعية مختلفة كذلك ،

والفن بهذا المعنى ليس مجرد تعبير خلاق عن تجربة الحياة الانسانية ، بل هو مشاركة كذلك في تغيير الحياة نفسها وتطويرها ،

ويتكون الفن من شكل ومضمون ، الشكل هو التنظيم الداخلي لعناصر الموضوع الذي يعالجه الفنان ، اما المضمون فهو الاثر العام الذي يتركه هذا العمل في وجدان التذوق ، والشكل والمضمون في الفن عمليتان متفاعلتان مترابطتان ، اذ ان التنظيم الخاص للعمل الفني (او شكله) يسهم في تحديد الاثر العام للعمل اي (مضمونه) كما ان المضمون هو الذي يحدد هذا التنظيم او التشكيل الخاص للعمل الفني ،

من افلام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

ورغم الطابع الوجداني لهذا الاثر العام الذي يتركه العمل الفني ، فانه يتضمن دلالة فكرية وموقفا اجتماعيا ،

ولكن مهما كانت القيمة الانسانية التي يتركها هذا المضمون او الاثر العام فان الذي يعطي للفن فنيته هو شكله ، وبدون الشكل الفني لا يمكن للمضمون نفسه ان يكون فعالا ومؤثرا ، ولهذا فان جودة المضمون من جودة الشكل الفني » ،

بعد ان عرفنا التعريف الاكاديمي للفن ، لا بد لنا ، ان نعرف انعكاس الصراعات السياسية واحتدامها على الحركة الفنية ، فالعلاقة الجدلية ما بين الفن والواقع تحتم بالضرورة بروز التيارات الجديدة ، واتخاذ هذه التيارات طابعا جماهيريا سهل التلقي ودون ان يفقد عمق المضمون والرؤية التحليلية ،

السينمائيون التقدميون في البلدان الرأسمالية الذين حوصروا من قبل شركات الاحتكار الانتاجية والتوزيعية ، توجهوا في امريكا وفي اليابان الى كشف الواقع المأساوي للطبقات المسحوقة من خلال الافلام الوثائقية وصاروا يعرضونها على الجدران وفي الاندية والبيوت ، علنا وسرا ، صاروا يستعملون السينما كسلاح تحريضي يومي لكشف الحياة الصعبة للعمال والكادحين،الفقراء وفضح النتائج السلبية للمصانع التي لا تأخذ بحسابها طبيعة الحياة الانسانية، فتعمل دونما نظرة لما يفرزه المصنع من نفايات ، ولا تخضع لاية رقابة تهم المصلحة العامة ، اضافة الى كشف حجم وطبيعة الاستغلال وحقيقة الحياة الصعبة التي تخفيها اساليب الاعلام التضليلية للطبقات الحاكمة مالكة المصانع والمصارف ،

وفي الوقت الذي تسربت فيه الرساميل المصرفية لشراء الاستوديوهات في البلدان التي بدأت تنمو فيها صناعة سينمائية وطنية للاستحواذ على فرص الانتاج ، ووضع الفنانين والفنيين تحت رحمتها ووصايتها ، والتحكم بطبيعة الانتاج وتوجيهه ضمن الخط الفكري لخدمة المصالح الرأسمالية التي تقوم سياستها على وضع الانسان تحت رحمة القدر الذي هو وحده القادر على تقرير مصيره ، وان الانسان الفرد هذا قادر بموهبته وذكائه على شق طريق النجاح دون اي اعتبار اجتماعي .. هذه الافكار وغيرها من تلك التي تقوم على مسخ التاريخ النضالي للشعوب وتشويه قيم حركات التحرر ، وتصويرها على انها حركات تمرد ذات اطماع ومنافع تقوم على السلب والسطو وسحق من يقف في طريقها .. الخ ،

من ناحية اخرى تغزو اسواق هذه البلدان افلاما بوليسية تصور تضحية رجال البوليس « المشرفة » في المحافظة على ارواح الناس وكشف الجرائم وذلك لابعاد المفهوم القمعي لهذه الادوات التي تطارد الناس المناضلين حملة الافكار التقدمية الساعية الى تغيير الواقع السياسي ،

ولكن هذه النتاجات التي حققت في البداية نجاحات في الهيمنة على وسائل الانتاج السينمائية ، ولعبت دورها في استقطاب المشاهدين لم تدم طويلا ، فسرعان ما انهارت اقتصاديا وايضا ثقافيا بسبب طبيعتها التي تسير بعكس حركة الواقع ،

نحن هنا نتحدث عن الفن السينمائي (كنموذج) باعتباره اكثر الفنون انتشارا وتأثيرا في الناس ، وهذا الامر يسري على بقية الفنون ولكن بنسبة اقل ، ولكن التطور حصل ايضا في بقية الفنون ، فالملصق السياسي (البوستر) كما اوضحنا اصبح بديلا عن لوحات الصالونات والمسرح السياسي الذي حطم الاطر التقليدية لابنية المسرح وديكوراتها وتوجه الى المقاهي والتجمعات السكانية معتمدا القيمة الفكرية وباشكال تقدمية متفاعلة مع هذه القيم ومنسجم مع روح العصر فكريا وجماليا ، هذا المسرح يكاد يكون مع الوقت البديل الموضوعي للمسرح التقليدي القديم ، والاغنية السياسية التي تعتمد تحريض الجماهير والتعبير عن همومها والتغني بانتصاراتها اصبحت هي البديل الموضوعي ايضا عن تلك الاغاني التي تتحدث عن هجران الحبيب وخيانته (الستراتيجية !) ، والبكاء على القلب المجروح من قبل الحبيب الغادر الجميل الذي ترك حبيبه وحيدا وسط عواصف الدهر وعذاباته ،

نحن اذن امام توجهات فن غير تقليدي ، فن وطني يرتبط بالجماهير ، وهذا الفن الذي نسميه فنا (بديلا) يأخذ احيانا صيغا ثورية ، فنطلق عليه اسم (الفن الثوري) ، فالفنون التي تمت ضمن مسار الثورة الفيتنامية كانت نموذجا للفن الثوري (المسرح ، السينما ، الموسيقى ، والفنون التشكيلية) ،

نلاحظ في مجال المسرح والفنون الشعبية ، ان المجموعات المسرحيةالمنتشرة في كل مواقع القتال ، تقدم للمقاتلين باستمرار مسرحيات ورقصات شعبية مستمدة من واقع حياة الثوار سواء القتالية منها او العلاقات الانسانية ، فكثيرا ما شهدت المناطق المحررة من جنوب فيتنام (قبل الانتصار) حفلات جميلة لرقصات تعبيرية مستمدة من حكايات واساطير فيتنامية تراثية تلهب الحماس الثوري في نفوس المقاتلين تجعلهم اكثر تصميما في معارك التحرير ،

وفي مجال الفنون التشكيلية ، فالذين اتيحت لهم فرصة اللقاء مع الوفود الفيتنامية لا شك حصلوا على تلك البطاقات الملونة للرسامين الذين يبدعون في رسم اللحظات البارعة في حياة الشعب الفيتنامي ، ليس هذا فقط انما تطبع ايضا رسوم المقاتلين ورسوم الاطفال ، اذ كثيرا ما يبدع مقاتل في التعبير عن حادث او مناسبة انطبعت في احاسيسه ورغب في ان يثبتها في لوحة ،، هذا اضافة الى المعارض التي تقام باستمرار في القواعد وفي المناطق المحررة ،

ولقد اطلعنا من خلال الوثائق المصورة كيف تتنقل فرقة العروضالسينمائية في المناطق المخطرة لتصل الى مواقع بعيدة من اجل تقديم عروض سينمائية للمقاتلين ، وتلك الافلام صورتها وتصورها عادة وحدة الافلام العسكرية لترسل الى هانوي ، لاستكمال العمليات الفنية وتعود الوثائق المصورة افلاما وثائقية تنتشر في شتى انحاء العالم تعكس البطولة العظيمة للمقاتل الفيتنامي ، ان مصوري السينما ومخرجي الافلام لا يتركون موقعا ولا معركة ولا حدثا الا وسجلوه على الشريط الحساس ، لقد ثبتوا تاريخهم بالصورة المتحركة ، ولعبت السينما دورا كبيرا في اظهار الحقائق للرأي العام العالمي اضافة الى